نَسَبُ النَّبِيِّ ﷺ الشَّرِيفُ وَأُسْرَتُهُ

نَسَبُ النَّبِيِّ ﷺ :

قال الإمام البخاري: (هُوَ أَبُو القَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ)[١] . .

وقال الذهبي في كتابه السيرة النبوية: وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بإجماع الناس لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء[٢] .

الأُسْرَةُ النَّبَوِيَّةُ :

تُعْرَفُ أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية ؛ نسبة إلى جده هاشم .

١ـ هَاشِم:

تولى السقاية والرفادة من بنى عبد مناف ، وكان مُوسِرًا ذَا شَرفٍ كبير ، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو وسُمِّيَ هاشِمًا ؛ لهشمه الخبز[٣] . وهو أول من سن الرحلتين لقريش . .

وعندما خرج إلى الشام تاجرًا قدم المدينة وتزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي ابن النجار وأقام عندها ؛ ثم خرج إلى الشام فمات بغزة من أرض فلسطين وولدت سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧مـ وسَمَّتْهُ شيبة ؛ لشيبة كانت في رأسه . . وجعلت تُرَبِّيه في بيت أبيها بيثرب ، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة .

وكان لهاشم أربعة بنين هُمْ: أسد وأبو صيفي ونضلة وعبد المطلب ، وخمس بنات هُنَّ: الشفاء والخالدة وضعيفة ورقيَّة وجنَّة .

٢ـ عَبْدُ المطّلِب:

تولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد موت أخيه هاشم ، وكانت قريش تسمِّيه

---

(١) الرحيق المختوم ص ٥٥ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٥ .

(٣) هشم الخبز: كسره ؛ كما في المعجم الوجيز ص ٦٥٠ .

الفيَّاض ؛ لسخائه . . ولَمَّا صار شيبة فوق سبع أو ثماني سنين سمع به المطلب فرحل فى طلبه ، وقدم به مكة مردفه على بعيره ، فقال الناس: هذا عبد المطلب ، فقال لهم: ويحكم! . . هذا ابن أخى هاشم .

وبعد موت المطلب ولى بعده عبد المطلب ، فاغتصب عمه نوفل حقه فسأل رجالاً من قريش النصرة على عمه ، فأبوا ، فأرسل إلى أخواله من بني النجار ، فسار خاله أبو سعد بن عدى إليه وناصره ؛ فاسترد حقه من عمه نوفل .

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل:

- خلاصة الأولى:

أمر عبد المطلب فى المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام بحفرها فوجد فيه الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أي: السيوف والدروع والغزالين من الذهب ، فضرب الأسياف بابًا للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين صفائح من الذهب ، وأقام سقاية زمزم للحجاج . .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له: أشركنا ، قال: ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به ؛ فخرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد هُذَيْم ، وكانت بأشراف الشام ، فلما كانوا فى الطريق نفذ الماء فسقى الله عبد المطلب مطرًا ، ولم ينزل عليهم قطرة ، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم فرجعوا ، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن أتاه الله عشرة أبناء ، وبلغوا أن يمنعوه لينحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة .

- خلاصة الثانى:

أن أبرهة الحبشى النائب العام عن النجاشى على اليمن ، لَمَّا رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها وسمع بذلك رجل من كنانة ، فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة ؛ ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه ، وسار بجيش عدده ستون ألف جندى ؛ ليهدم الكعبة ، واختار لنفسة فيلاً من أكبر الفيلة ، وكان عدد الفيلة ٩ أو ١٢ فيلاً ، ولما وصل بين المزدلفة ومنى برك الفيل ، ولم يقم ليتقدم إلى الكعبة ، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبه برك . .

فبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ؛ ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أمثال الحمص ، لا تصيب منهم أحدًا إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك ، وليس كلهم أصابت ، فخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض ، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا ، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله ، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبيﷺ بخمسين أو خمسة وخمسين - عند الأكثر- في أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١م .

٣. عَبْدُاللَّهِ:

أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه ، وهو الذبيح ، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة ، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه ، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله ، فقال: اللَّهُمَّ هو أو مائة من الإبل ثم أقرع بينه وبين الإبل ، فطارت القرعة على الإبل ، وقيل: إنه كتب أسماءهم في القداح ، وأعطاها قيم هبل ؛ فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله فأخذه عبد المطلب: وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى الكعبة ؛ ليذبحه فمنعته قريش ولا سيما أخواله من بنى مخزوم وأخوه أبو طالب ، فقال عبد المطلب: فكيف أسمع بنذرى؟! فأشاروا عليه أن يأتى عرافة فيستأمرها ، فأتاها ، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشرة من الإبل ؛ فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرة من الإبل ؛ حتى يرضي ربه فإن خرجت على الإبل نحرها فرجع وأقرع بين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشرة عشرة ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها فنحرت ثم تركت لا يرد عنها إنسان ولا سبع وكانت الدية في قريش وفي العرب عشرة من الإبل . . فجرت بعد هذه الواقعة مائة من الإبل أقرها الإسلام وروي عن النبىﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» يعنى: إسماعيل وأباه عبد الله .

اختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب أفضل امرأه فى قريش نسبًا وموضعًا ، فبنى بها فى مكة . .

وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرًا فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشام، فأقبل فى عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها وعمره خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ وبه يقول أكثر المؤرخين[1]..

وقيل بل توفى بعد مولده ﷺ بشهرين أو أكثر[2].

مِيلادُ النَّبِيِّ ﷺ

مَوْلِدُهُ ﷺ:

قال ابن إسحاق: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل[3].

وعن ابن عباس وجابر - رضي الله عنهما- إنهما قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات، فَهَذَا هو المشهور عند الجمهور.. والله أعلم.

وقد رُوِيَ أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التى يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاصت وأنَّهُ ﷺ ولد مختونًا مسرورًا، أي: مقطوع الحبل السُّرِّيِّ.. إلى آخر ما روى عن الإرهاصات التي حدثت عند الميلاد.

وفي الحقيقة أنَّ كل ذلك لم يصح؛ ولم يأت خبر صحيح بحدوث أى شيء من ذلك، فالثابت من خلال الأحاديث الصحيحة أنَّ أُمَّ النبيِّ ﷺ رأت نورًا يخرج منها فأضاء قصور الشام وذلك عند ولادته.

قال ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمِّى أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام**»؛ ولَمَّا ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له، واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفًا فى العرب- وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون..

---

(١) الرحيق المختوم ص ٥٦ - ٥٩ مختصرًا.
(٢) ابن هشام ص ١ / ١١١، الرحيق المختوم ص ٥٩.
(٣) ابن هشام ١ / ١١١.

وأول من أرضعته من المراضع - وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له: مسروح، وكانت قد أرضعت - قبله- حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

فِي بَنِي سَعْدٍ:

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعادًا لهم عن أمراض الحواضر؛ ولتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربى فى مهدهم، فالتمس عبد المطلب ﷺ المراضع واسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر، وهى حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، وزوجها الحارث بن عبد العُزَّى المكنَّى بأبى كبشة من نفس القبيلة..

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهى الشيماء، لقَبٌ غلب على اسمها) وكانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمها إذا كانت عندهم وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعًا فى بنى سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ من جهتين؛ من جهة ثويبة ومن جهة السعدية [١].

قال ابن إسحاق: كانت حليمة تحدث: إنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر؛ تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك فى سنة شهباء[٢] لم تبق لنا شيئًا؛ قالت: فخرجت على أتان قمراء[٣]، معنا شارف[٤] لنا، والله ما تبض بقطرة[٥]، وما ننام ليلنا أجمع من صبيِّنا الذى معنا من بكائه من الجوع، ما فى ثديي ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه، ولكنَّا كُنَّا نرجو الغيث والفرج.. فخرجت على أتانى تلك فلقد أدمت بالركب[٦] حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا[٧]؛ حتى

---

(١) الرحيق المختوم ص ٦٢.
(٢) الشهباء: مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.
(٣) قمراء: بيضاء.
(٤) شارف: الناقة المسنة.
(٥) تبض بقطرة: تعطي قليلاً.
(٦) أدمت: طالت بها مسافة السير.
(٧) العجف: الهزال.

قدمنا مكة نلتمس الرَّضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعًا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذه رضيعًا؛ والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلى؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخذه إلا أنّي لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي؛ فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى..

ثم نام وما كنا ننام معه قبل ذلك وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل[1] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعًا فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت - أنا- أتانى وحملته عليها معى فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه من حمورهم؛ حتى إن صواحبى ليَقُلْنَ لى: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك! اربعى علينا[2] أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى وَاللهِ، إنها لهيَ هِيَ، فيقلن: والله إنَّ لها لشَأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعًا لبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع؛ حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم أسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لُبَّنًا[3]، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير؛ حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا قالت: فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص على مكثه فينا، لِمَا كنا نرى من بركته، فكلمنا أمَّهُ وقالت لها: لو تركت بُنَيّ

(١) الحافل: امتلأ ضرعها باللبن، وكثر لبنها.
(٢) اربعي علينا: ارفقي بنا.
(٣) لُبَّنًا: بضم فتشديد: معناها ممتلئة الضرع باللبن.

عندى ؛ حتى يغلظ ، فإنى أغشى عليه وباء مكة ، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا[١] .

حَادِثَةُ شَقِّ الصَّدْرِ:

وفى السنة الرابعة من مولده على قول المحققين ، بعد عودته إلى بنى سعد بأشهر على قول ابن إسحاق وقع حادث شق صدره[٢] .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ[٣]: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ[٤] ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ وقد حدثت - أيضًا- حادثة شق الصدر مرة أخرى فى رحلة الإسراء والمعراج[٥] .

إِلَى أُمِّهِ الحَنُون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة فردته إلى أمه ، فكان عند أمه ؛ حتى بلغ ست سنين .

ورأت آمنة أن تزور قبر زوجها بيثرب ، فخرجت من مكة مع ولدها وأم أيمن وعبد المطلب ، فمكثت شهرًا ثم قفلت ، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض فى أوائل الطريق ، ثم اشتد ؛ حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة[٦] .

إِلَى جَدِّهِ العَطُوفِ

وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب الذى كان يؤثره على أولاده ؛ قال ابن إسحاق: كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه ؛ إجلالا له ، فكان رسول الله ﷺ يأتى

---

(١) ابن هشام (١ / ١١٣: ١١٥) .
(٢) الرحيق المختوم ص ٦٣ .
(٣) (صحيح): مسلم ١٦٢ .
(٤) منتقع اللون: متغير اللون .
(٥) سيرة الرسول لأبي عمار ٦١ - ٦٢ .
(٦) الرحيق المختوم ص ٦٤ .

وهو غلام جفر ، حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى ، فواللهِ إنَّ له لشأنا ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع .

توفى عبد المطلب ورسول اللهﷺ ابن ثمان سنين[١] .

إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ

عندما أحس عبد المطلب بدنو أجله أوصى ولده أبا طالب بكفالة الحبيبﷺ وأوصاه به خيرًا ، وذلك لأن عبد الله - والد الرسولﷺ - وأبا طالب أخوان لأب وأم ، فأمهما هى فاطمة بنت عمرو بن عائذ ، وكذلك فإنَّ عبد المطلب كان يشعر بأنه لن يحافظ على الحبيبﷺ ويحوطه بالرحمة التى تتدفق من قلبه والحنان إلا فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب لِمَا كان يشعر من الرحمة التي تتدفق من قلبها . .

كان أبو طالب رحيمًا بهﷺ وكان رزقه قليلاً ، فعمد النبيّﷺ إلى مساعدته ، فاشتغل برعى الأغنام فى شعاب مكة وفجاجها ، وقد ثبت فى الحديث قيامه بهذا العمل حيث روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبىﷺ قال: «**مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلا رَعَى الْغَنَمَ**» ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ ، فَقَالَ: «**نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ**»[٢] .

ولَمَّا عاش الحبيبﷺ فى بيت عمه دخلت البركة لأول مرة هذا البيت ، وبخاصة فى طعام الأولاد إذا أكل معهم النبىﷺ فكان عيال أبى طالب إذا أكلوا جميعًا أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول اللهﷺ شبعوا وتبقى من طعامهم . .

وكانت فاطمة بنت أسد ترعاه منذ طفولته إلى أن تزوج السيدة خديجة رضى الله عنها ، وكان النبى يشعر أن الله عوضه عن موت أمه بتلك الأم الرحيمة[٣] .

بَحِيرَى الرَّاهِبُ:

ولَمَّا بلغ رسول اللهﷺ اثنتي عشرة سنة ، قيل: وشهرين وعشرة أيام- ارتحل به أبو طالب تاجرًا إلى الشام ؛ حتى وصل إلى بُصْرَى وهى معدودة من الشام ، وقصبة

---

(١) ابن هشام ١ / ١١٨ .

(٢) البخاري (٤ / ٥١٦) ، مسلم (١ / ٦٠٥) .

(٣) سيرة الرسول أبو عمار (٦٤ - ٦٦) مختصرًا .

لحوران ، وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان ، وكان فى هذا البلد راهب عرف ببحِيرَى ، واسمه فيما يقال: جرجيس ، فلما نزل الركب خرج إليهم وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك فجعل يتخللهم ؛ حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد العالمين . . هذا رسول رب العالمين . . هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أبو طالب وأشياخ قريش: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خَرَّ ساجدًا ولا يسجدان إلا لنَبِيٍّ ، وإنى أعرفه بخاتَم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة . . إنَّا نجده فى كتبنا ثم أكرمهم بالضيافة ، وسأل أبا طالب أن يرده ولا يقدم به إلى الشام ؛ خوفًا عليه من الروم واليهود . .

فبعثه عمُّه مع بعض غلمانه إلى مكة[١] ، وقيل: إن أبا طالب بعث معه أبا بكر وبلالاً[٢] .

حَرْبُ الفُجَّار :

وفى السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت فى سوق عكاظ حرب بين قريش - ومعهم كنانة - وبين قيس عيلان تعرف بحرب الفجار ، وسببها: أن أحد بنى كنانة اسمه البراض اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان ، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان وكان قائد قريش وكنانة كلها حَرْب بن أُمَيَّة ؛ لمكانته فيهم سنًّا وشرفًا ، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ؛ حتى إذا كان فى وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس ؛ ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين ؛ فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد ، فاصطلحوا على ذلك ووضعوا الحرب ؛ وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر ؛ وسمِّيت بحرب الفجار ؛ لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها[٣] وقد شهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم ؛ أخرجه أعمامه معهم . . وقال رسول الله ﷺ : «**كنت أنبل على أعمامى**» أي: أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها[٤] .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٦٥ .
(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٨ .
(٣) الرحيق المختوم ٦٥ - ٦٦ .
(٤) ابن هشام ١ / ١٢٤ .

حِلْفُ الفُضُولِ

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول فى ذي القعدة فى شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العُزَّى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان التيمى لسنِّه وشرفه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألاَّ يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه . . وكانوا على من ظلمه ؛ حتى ترد عليه مظلمته ، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ ؛ وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «**لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت**» .

وهذا الحلف روحه تنافى الحمية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها ، ويقال فى سبب هذا الحلف: إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة واشتراها منه العاص بن وائل السهمى ، وحبس عنه حقه ؛ فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوم وجمحًا وسهمًا وعديًا ، فلم يكترثوا له ، فعلا جبل أبى قبيس ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعًا صوته ، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال: ما لهذا مترك ؛ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول ، فعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه حق الزبيدي .

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْصِمُ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ أَقْذَارِ الجَاهِلِيَّةِ :

لقد عصم الله (عز وجل) نبيه ﷺ من أقذار الجاهلية ؛ لتكون حياته صفحة بيضاء ليس فيها شائبة ، فهو القدوة للكون كله في كل مكان وزمان .

فمن ذلك أن الله - عز وجل- صانه عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام وأنه ﷺ لم يكن يشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب وعن علي بن أبى طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته قلت ليلة للغلام الذي يرعى الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي؛ حتى أدخل مكة، وأسمر بها كما يسمر الشباب فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع فضرب الله على أذني، فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي فسألني**

فأخبرته ثم قلت: ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة[١] ثم ما هممت بسوء»[٢].

تِجَارَتُهُ بِمَالِ خَدِيجَةَ وَزَوَاجُهُ مِنْهَا:

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجرالرجال في مالهم وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول اللهﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة فقبله رسول اللهﷺ منها، وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة؛ حتى قدم الشام، فنزل رسول اللهﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذى نزل تحت الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع رسول اللهﷺ سلعته التى خرج بها، واشترى ما أراد أن يشترى، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة - فيما يزعمون- إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى مَلَكَيْنِ يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره[٣].

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة فى مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بِمَا رأى فيهﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليهﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وأصدقها عشرين بكراً، وكان سنُّهُ إذ ذاك خَمْسًا وعشرين وسنُّها أربعين سنة، وكانت - يومئذ- أفضل نساء قومها

---

(١) رواه الطبري وغيره وصححه الحاكم وتبعه الذهبي وضعفه ابن كثير.
(٢) سيرة الرسول لأبي عمار ٦٨ - ٦٩، الرحيق المختوم ٦٨ - ٦٩.
(٣) ابن هشام ١ / ١٢٥.

نسبًا وثروة وعقلاً، وهى أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم[١].

اشْتِرَاكُهُ ﷺ فِي بِنَاءِ الكَعْبَةِ:

قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم المحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها؛ حرصًا على مكانتها واتفقوا على ألاَّ يدخلوا فى بنائها إلا طيِّبًا، فلا يدخلون فيها مهر بغيّ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين، ولَمَّا لم يصبه شيء تبعه الناس فى الهدم فى اليوم الثانى، ولم يزالوا فى الهدم؛ حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ فى البناء فجزأوا الكعبة وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها وتولى البناء بنَّاء رومى اسمه: باقوم.

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداءً فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه؛ حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذ بيده، فوضعه فى مكانه.

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا بُنِيَتْ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلاَنِ الْحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ[٢]: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنْ الْحِجَارَةِ؛ فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «**إِزَارِي إِزَارِي فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ**» وفى رواية: فما رؤيت له عورة بعد ذلك[٣].

---

(١) ابن هشام ١ / ١٢٥.
(٢) (صحيح) البخاري ٣٨٢٩.
(٣) الرحيق المختوم ٦٧ - ٦٩.

العِبَرُ والعِظَاتُ:

تنطوي هذه الفترة من حياته ﷺ على العديد من الحكم والعبر منها:

١- ليس من قبيل الصدفة أن يولد ﷺ يتيمًا، ثم لم يلبث أن فقد جده أيضًا، فينشأ النشأة الأولى من حياته بعيدًا عن تربية الأب ورعايته محرومًا من عاطفة الأم وحنوها.

لقد اختار الله - عز وجل- لنبيه ﷺ هذه النشأة لحكم باهرة؛ لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة القلوب أو إيهام للناس بأن محمدًا ﷺ إنما رضع لبان دعوته ورسالته التى نادى بها منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده، ولم لا؟ إن جده عبد المطلب كان صدراً فى قومه، فلقد كانت إليه الرفادة والسقاية[1].

ومن الطبيعى أن يربى الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه هذا الميراث..

- ولَمَّا توفى جده وانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب الذى امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات؛ كان من تتمة هذه الحكمة أن لا يسلم عمه؛ حتى لا يتوهم أن لعمه مدخلاً فى دعوته، وأن المسأله مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب.

٢- تُعَدُّ حادثة شق الصدر التى حصلت له ﷺ أثناء وجوده فى مضارب بنى سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل؛ وليست الحكمة من هذه الحادثة والله أعلم؛ استئصال غدة الشرِّ في جسم رسول الله ﷺ؛ إذ لو كان الشر منبعه غدة فى الجسم أو علقة فى بعض أنحائه؛ لأمكن أن يصبح الشرير خيِّرًا بعملية جراحية، ولكن يبدو أن الحكمة هى إعلان أمر الرسول ﷺ وتهيّؤه للعصمة والوحى منذ صغره بوسائل مادية؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس وتصديقهم برسالته؛ إنها إذًا عملية تطهير معنوى؛ ولكنها اتخذت هذا الشكل المادى الحسى؛ ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم[2].

٣- وفي رعى الغنم ما فيه من تهيئة الله - سبحانه وتعالى- لنبيه لتلقى الرسالة والقيام بأمر الدعوة؛ وفي حديث النبى ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلا رَعَى الْغَنَمَ**» يبين أنه ما من

---

(١) شيء كانت قريش تتعاون فيه فيجمعون مالا كثيرا؛ يشترون به طعاما ونبيذا ويطعمون الناس ويسقونهم أيام الحج.

(٢) فقه السيرة للبوطي ٥٠ - ٥٢.

نبى إلا ورعى الغنم ؛ ولعل الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الأغنام قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكفلونه من القيام بأمر أمتهم ، ولأنَّ فى مخالطتها ما يُحصِّل لهم الحلم والشفقة ؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ؛ ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق ؛ وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلاف طباعها ، وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ، ورفقوا بضعيفها ، وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلفوا القيام بذلك من أول وهلة لِمَا يحصل لهم من التدرج على ذلك برعى الغنم ، وخُصَّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر ؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة ، ومع أكثرية تفرقها فهى أسرع انقيادًا من غيرها [1] .

وفى إقباله ﷺ على رعى الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ثلاث دلالات مهمة:

١- الذوق الرفيع والإحساس اللذان جمل الله - تعالى- بهما نبيَّه محمَّدا ﷺ ، لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له فى الحنو والشفقة كالأب الشفوق ، ولكنه ﷺ ما إن أنس فى نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الإنفاق عن عمه ، وربما كانت الفائدة التى يجنيها من وراء عمله الذى اختاره الله له فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبى طالب ، ولكنه على كل تعبير أخلاقى رفيع عن الشكر ، وبذل للوسع ، وشهامة فى الطبع ، وبر فى المعاملة .

٢- وتتعلق ببيان نوع الحياة التى يرتضيها الله - تعالى- لعباده الصالحين فى دار الدنيا ، لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أن تهيِّئ للنبى ﷺ وهو فى صدر حياته من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعيًا وراء القوت ، ولكن الحكمة الإلهيه تريد منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكد يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبنى جنسه ، وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستَلْقٍ على ظهره دون أن يرى أى تعب فى سبيله ، ودون أن يبذل أى فائدة للمجتمع فى مقابله .

---

(١) سيرة الرسول لأبي عمار ٦٤ - ٦٥ .

٣- إن صاحب أى دعوة ، لن تقوم لدعوته أى قيمة فى الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم .

ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو مورد شريف لا استجداء فيه ؛ حتى لا تكون عليه لأحد منَّة أو فضل فى دنياه فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق فى وجهه غير مبال بالموقع الذى قد تقع من نفسه .

فقد أراد الله - عز وجل- أن لا يكون فى شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أى تأثير سلبى ، فيما بعد البعثة [١] .

نُزُولُ الوَحْيِ فِي غَارِ حِرَاء

وَلَمَّا قاربت سنه الأربعين حُبِّبَ إليه الخلاء ، فقد كان محمَّد ﷺ يهجر مكة كل عام ؛ ليقضى شهر رمضان في غار حراء على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة في رأس جبل من هذه الجبال المشرفة على مكة والتى ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل ، ويبدأ السكون الشامل المستغرق في هذه القمة السامقة المنزوية ، كان محمّد ﷺ يأخذ زاد الليالى الطّوال ثم ينقطع عن العالمين متجها بفؤاده المشوق إلى رب العالمين! .

وفي هذا الغار النائى كان محمد ﷺ يتعبد ، ويصقل قلبه ، وينقى روحه ويقترب من الحق جهده ويتبعد عن الباطل وسعه ؛ حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية انعكست بها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة ، فأمسى لا يرى رؤيا إلى جاءت كفلق الصبح [٢] .

بدْء الوَحْيِ:

روى الإمام البخارى عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحى:

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ[٣]: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ

---

(١) فقه السيرة للبوطي ٥٤ - ٥٥ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٨٠ مختصرًا .

(٣) (صحيح) البخاري ٤ .

إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: «اقْرَأْ قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ [العلق: ١ - ٣] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ[1] فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا بْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا بْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا[2] لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ»[3].

فَتْرَةُ الوَحْيِ:

اختلف فى الزمن الذى فتر فيه الوحى فقيل: ثلاث سنوات؛ وقيل أقل من ذلك؛ والراجح ما رواه البيهقى من أن المدة كانت ستة أشهر[4].

وعن جندب بن عبد الله الجبلى رضى الله عنه قال: (اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثًا فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا تركك؛ فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ ﴾ [الضحى: ١ - ٤].

---

(١) الكل: الثقل ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، كسب المعدوم: هو إعطاء الفقير تبرعا، النوائب: الحوادث.

(٢) جذعا: شابا قويا.

(٣) فقه السيرة للبوطي ٦٦ - ٦٧، الرحيق المختوم ٧٥ - ٧٦.

(٤) وذكر ابن هشام أن فترة الوحي كانت أيامًا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١- ٥] **قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلاَةُ وَهِيَ الأَوْثَانُ**».

كَيْفَ كَانَ يَأْتِي الوَحْيُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟

لقد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله- مراتب الوحى الذى كان يتنزل على النبى ﷺ فقال: وكمل الله له من مراتب الوحى مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

الثانية: ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبى ﷺ : «**إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس؛ حتى تستكمل رزقها وتستوعب أجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**»[(١)] .

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً ، فيخاطبه ؛ حتى يعي عنه ما يقول له ، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا .

الرابعة: أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك ؛ حتى أن جبينه ليتفصد عرقًا فى اليوم الشديد البارد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان ركبها ، ولقد جاءه الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضُّهَا .

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين ، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ

---

(١) صحيح الجامع ٢٠٨٥ .

﴿ ١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦ ﴾

[النجم: ٣ - ١٦] .

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك ، كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن ، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهى تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب ، وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى ، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف[1] .

* * *

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٨٣ - ٨٤ .

حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي ظِلَالِ النُّبُوَّةِ

تنقسم حياة رسول الله ﷺ بعد أن شرَّفَهُ الله بالنبوة والرسالة إلى عهدين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهما:

العهد المكي: ثلاث عشرة سنة تقريبًا .

العهد المدني: عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من العهدين على عدة مراحل لكل مرحلة منها خصائص تمتاز بها عن غيرها .

ويمكن تقسيم العهد المكي إلى ثلاث مراحل:

١- مرحلة الدعوة السريَّة ثلاث سنوات .

٢- مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة: من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة .

٣- مرحلة إعلان الدعوة خارج مكة وفشوها فيهم من أواخر السنة العاشرة من النبوة وقد شملت العهد المدني وامتدت إلى آخر حياته ﷺ.

أما مراحل العهد المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه[1] .

المَرْحَلَةُ الأُولَى: الدَّعْوَةُ سِرًّا

ثَلاثُ سَنَوَاتٍ مِنَ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ:

بدأ النبي ﷺ يستجيب لأمر الله بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر - فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ؛ ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرًّا حذرًا من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها فلم يكن ﷺ يظهر الدعوة في المجالس العمومية لقريش[2] .

الرَّعِيلُ الأَوَّلُ:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به من

---

(١) الرحيق المختوم ص ٧٣ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٧٥ .

أهـل بيـته وأصدقائه فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعـرفونه ، يعـرفهم بحب الحق والخير ، ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح ؛ فأجابه من هـؤلاء جمـع عـرفوا فى التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين ، وفى مقدمتهم زوجة النبى ﷺ أم المؤمـنين خديجـة بـنت خويلد ومولاه زيد بن حارثة وابن عمه على بن أبى طالب وكان صبيًّا يعيش فى كفالة الرسول ﷺ وصديقه الحميم أبو بكر الصديق أسلم هؤلاء فى أول يوم للدعوة .

ثـم نـشط أبـو بكـر فـى الدعـوة إلى الإسـلام وكـان رجلاً مألفًا محببًا سهلاً ذا خلق ومعـروف ، وكـان رجـال قـومه يأتـونه ويألفونه ؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته فجعل يدعـو مـن يـثق بـه مـن قـومه مِمَّـن يغشاه ، ويجلس إليه فأسلم بدعوته عثمان بن عفان والـزبير بـن عـوام وعـبد الـرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله ؛ فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام[1] .

دَارُ الأَرْقَمِ بنِ أَبِى الأَرْقَمِ :

ثـم لَمَّـا أربـى الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين ؛ ما بين رجل وامرأة - اختار لهـم رسـول الله ﷺ دار أحـدهم وهـو الأرقـم بن أبى الأرقم ؛ ليلتقى بهم فيها لحاجات الإرشـاد والتعلـيم وكانـت حصيلة الدعوة فى هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة دخلوا فى الإسلام عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن له بين قريش[2] .

الصَّلاَةُ:

ومـن أوائـل مـا نـزل مـن الأحكـام الأمـر بالـصلاة ، قـال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسـراء يـصلى قطعًـا وكـذلك أصـحابه ، ولكـن اخـتلف هـل فـرض شـيء قـبل الـصلوات الخمـس مـن الـصلاة أم لا؟ فقـيل: إن الفـرض كانـت صـلاة قـبل طلـوع الشمس وقبل غروبها . . انتهى .

وروى الحـارث بـن أبـى أسـامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد بن حارثة أنَّ رسـول الله ﷺ فـى أول ما أوحى إليه أتاه جبريل فعلمه الوضوء ؛ فلما فرغ من الوضوء

---

(١) الرحيق المختوم ص ٨٠ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٧٦ .

أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه ، وقد رواه ابن ماجه بمعناه وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفى حديث ابن عباس: وكان ذلك من أول الفريضة .

وقد ذكر ابن هشام أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبى ﷺ وعليًّا يصليان مرة فكلمهما فى ذلك ، ولَمَّا عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات ، وهكذا مرَّت ثلاثة أعوام والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد ولم يجهر بها النبى ﷺ فى المجامع والنوادى إلا أنها عرفت لدى قريش ؛ وفشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس ، وقد تنكر له بعضهم أحيانًا واعتدوا على بعض المؤمنين إلا أنهم لم يهتموا به كثيرًا ؛ حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم ولم يتكلم فى آلهتهم[1] .

العِبَرُ وَالعِظَاتُ:

ألهم الله الرسول ﷺ ؛ والإلهام للرسول نوع من الوحى إليه أن يبدأ الدعوة فى فترتها الأولى بسرِّية وتكتُّم ، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصغى لها ويؤمن بها ؛ تعليمًا للدعاة من بعده وإرشادًا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة ، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التى ينبغى أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده . . وعلى أن لا يذهب الإنسان فى التمسك بهذه الأسباب مذهبًا يعطيها معنى التأثير والفاعلية فى تصوره وتفكيره ؛ فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام[2] .

وفى هذا درس لأصحاب الدعوة الإسلامية فى كل عصر أن يستعملوا المرونة فى كيفية الدعوة حسبما تقتضيه الظروف وحال العصر الذى يعيشون فيه بما يتفق مع مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية .

* * *

(١) الرحيق المختوم ٨١ - ٨٢ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٧٦ .